حب العـــرب

فى مناجم الذهب

للعلامة الشيخ عبد القادر المغربى

عضو مجمع اللغة العربيـــة الملكى

(دَرَى) الصيد يدريه إذا توارى عنه وما زال به حتى أمسكه. فدَرَى هذه بمعنى خَتَل. ولها أخت مشهورة بيننا: وهى (دَرَى المسألةَ) بمعنى علِمها وأدركها. وبعضهم جعل (دَرَى) هذه من بابة (دَرَى) الصيدَ. فاشترط فى دراية المسألة الوصول اليها بضربٍ من الحيلة.

ولمَ لا أقول فى (أدرك) كما قالوه فى (دَرَى)؟ فيكون إدراك المسألة وتعقلها بعد سعيٍ وجهد. كما أن إدراك الصيد واعتقاله بعد جريٍ وجهد.

ولا تقل أيها القارئ أن (دَرَى) بمعنى (خَتَل) لا عهدَ لنا بها. بلى! فانا نستعمل حتى فى لغة تخاطبنا أختاً لها: وهى كلمة (دارَى) من (المفاعلة) ونريد بها أن يُلين الشخص القولَ لآخر، ويسارع الى هواه، ويتجنب سخطه، فنستعملها بمعنى المجاملة، وإن كان اشتقاقها فى الأصل يدل على معنى الخديعة والختل.

اما شاهد (دَرَى) الصيدَ بمعنى خَتَله فهو قول الشاعر:

فان كنتُ لا أدرى الظباء فانى
أدسُّ لها تحت التراب الدواهيا

فالشاعر يريد بقوله (أدرى الظباء) أنه يختلها ختلاً إذا أراد اصطيادها، حتى إذا عجز عن ختلها وإمساكها باليد، فانه يصيدها بالفخاخ والحبائل يدسُّها لها تحت التراب. فالدواهى إنما أراد بها هذه الفخاخ؛ كما أن المراد بالظباء ظباء الوحش. ويبعد أن يكون أراد بها ظباء الانس: أعنى الحسان من النساء بدليل الرواية الأخرى وهى (أدسُّ لها تحت العِضاه المكاويا) و(العِضاه) شجر عظام فى البادية، تأوى اليها الظباء عند اشتداد الهجير فتقيل تحتها. وتعطُو إلى أوراقها و(المكاويا) جمع مكواة: آلة الكى المعروفة. وأراد بها هنا الفخاخ نفسها.

ولكلمتى (درى) و(دارى) أختان هما (ادّرى) الصيد من (الافتعال). و(تدرّى) الصيدَ من (التفعّل) وكلتاهما بمعنى (خَتَل) أيضاً.

أما شاهد (ادّرى) بتشديد الدال. فبيتٌ من الشعر كانا ينشده هكذا:

وماذا يبتغى الشعراء منى ... وقد جاوزتُ حدَّ الأربعين

وهو لسُحَيْم بن وثيل الرياحى. وصواب الرواية:

وماذا يدّرى الشعراء منى الخ

(يدّرى) بتشديد الدال من (ادّرَى) الصيد ختله حتى اصطاده. أى لا يظن الشعراء أنهم قادرون على ختلى وخديعتى بعد أن بلغت سنَّ الكمال والاستحصاف.

هذا شاهد (ادّرى). أما فعل (تَدَرَّى) بتشديد الراء (من التفعُّل) فله شاهد عجب. من أنباء حب العرب، فى معادن الذهب. وهو قول شاعرهم:

(كيف ترانى أدَّرِى وأدَّرِى
غِرَّاتِ، جُمْلٍ، وتَدَرَّى غِرَرِى)

على أن هذا البيت شاهد لكل من الفعلين: (ادّرى) (من الافتعال) و(تَدَرَّى) (من التفعُّل)

أما (اذّرى) بالذال المعجمة فليست من معنى الختل فى شىء. وإنما هى من تذرية الحَبِّ ونحوه فى الهواء. فيذهب القشر والتراب، ويبقى الحَبُّ واللباب.

وأصل (اذّرى) (ادترى) من الافتعال. كما أن أصل (اذّكر) أى تذكر (إدتكر)، وثلاثيه ناقص واوى: يقال ذَرَا فلان حَبَّ بيدره. و(ذرّاه) من التفعيل، فاذّرى فى بيت الشعر المذكور هو بهذا المعنى.

والفعلان الآخران (ادّرَى) و(تَدَرَّى) بالدالين المهملتين هما بمعنى خَتَل الصيد.

وقائل البيت لم يرد أنه ادّرى وختل ظبيةً من ظباء الوحش

وإنما كان غرضه أن يختل ظبيةً من ظباء الانس وهى (جُمْل) الحسناء. فهو يقول: قد كنتُ أنا و (جُمل) نعمل فى تحصيل الذهب وتنقيته من التراب، وكنتُ أعمل أنا فى تذريته وتعريضه لهبوب الريح فيتطاير التراب والشوائب هنا وهناك، وتقع ذرّات الذهب وقطعه الصغيرة على الأرض.

أمّا (جُمل) فلها وظيفة غير وظيفتى: وظيفتها (التحصيل). فأنا (المذرِّى) وهى (المحصِّلة).

قال ابن فارس: أصل معنى التحصيل استخراج الذهب من حجر المعدن.

وقال علماء اللغة: (المحصِّلة) كمحدِّثة المرأة التى تحصّل تراب الذهب أو تراب المعدن. ومعنى تحصيله تخليص الذهب منه. والتحصيل فى الذهب كالتصويل فى الحنطة ونحوها.

وقال ابن برّى: المحصّلة هى التى تميز الذهب من الفضة.

وجميع أرباب المعاجم لم يذكروا «اسم فاعل» التحصيل إلا بصيغة المؤنث (المحصِّلة) ولا يكادون يقولون (المحصّل) بالتذكير، إلا على سبيل بيان الاشتقاق القياسى. أما (المحصلة) الأنثى فقد أصبح وصفاً غالباً على امرأة ذات عمل خاص بها هو تحصيل الذهب وتنقيته.

ومما يحسن التنبيه اليه أن فعل (اذّرى) التى هى بمعنى التذرية فى قول الشاعر المذكور لم يقل أحد من علماء اللغة أن المراد بها تذرية حبّ الحنطة مثلا، بل أجمعوا على أن مراد الشاعر تذرية الذهب وتنقيته من التراب فيظهر أن البيت من قصيدة حكى فيها الشاعر حادثةً جرت له مع الحسناء (جُمْل) وهما يعملان فى معدن (حليت) على وزان (سكيت) فى بلاد نجد أو غيره من مناجم جزيرة العرب التى كثر التحدّث عنها فى الآونة الأخيرة.

وكما استفدنا من علماء اللغة أنّ (المحصّلات) من المشتغلات فى المعادن، وأن (التحصيل) من أعمال النساء الخاصة بهن أو الغالبة عليهن — استفدنا ذلك أيضاً من شعراء العرب. فقد قال أحدهم:

ألا رجل جزاه الله خيراً يدلُّ على محصّلةٍ تبيت؟

وهذه الدلالة فى مغزاها تشبه الدلالة فى قول الآخر:

يا من يدلُّ عزيزاً على عزيز

وإذا كانت وظيفة المرأة العربية فى معادن الذهب ما ذكرنا، فتكون الحسناء (جُمل) بينا هى منهمكة فى تحصيل الذهب وتخليص شذراته، كان الشاعر الذى قال: (كيف ترانى أذّرى واذّرى الخ) كان يذرّى تراب الذهب ويلاعب المذراة أو المنسف بيديه، أما عيناه فكانتا تلاعبان عينى (جُمل)؛ فكان يختل (غرّاتها) جمع (غرّة) أى غفلتها، فاذا غفلت رنا اليها. فيكون بذلك قد ختلها، أى خدعها مذ أوهمها أنه لا ينظر اليها مع أنه ينظر. ولم تكن (جُمل) بأقلّ كلفاً وحرصاً على مسارقته النظر، فكانت هى فى نوبتها أو فى دورها (كما يقولون) (تذرّاه) أى تختله وتخدعه فتوهمه أنها لا تنظر اليه، ثم تتحيّن (غرّره) جمع (غِرّة) أيضاً أى غفلته حتى اذا سنحت لها غرة من غرره نظرت اليه معجبةً أو متفرّسة إن كان يصلح لها بعلاً أو لا.

ومحصّل القول أنه كان للعرب معادن ذهب يجتمعون فيها نساء ورجالا، أحرارا فى عملهم، أو مأجورين لصاحب «رأس مال» رومى أو فارسى يشغلهم على حسابه. وان النساء كان عملهن التحصيل، أى تنقية ذرّات الذهب وشذراته، بينما الرجال الأشدّاء كانوا يقومون بأعمال أخرى أشق من أعمالهن كالتذرية وتفتيت الصخور بالمعاول ونحو ذلك.

ويظهر من لهج شعرائهم بذكر (المحصّلات) أنه كان لهن — من تجمعهن فى ذهابهن إلى المعدن وإيابهن، أو من زيّهن وشكل لبوسهن، أو من حديثهن ونوع تظرّفهن — كان لهنّ من ذلك حالة خاصة لفتت عيون الشبان إليهن، وحملتهن على ذكرهن وتمنى معاشرتهن.

وهذا كما هو الحال فى نساء المعامل وفتيات المخازن فى أوربا اليوم.

دمشق المغربى